أريد ١٠,٠٠٠ متطوع ومتطوعة
لمدينة القاهرة وحدها ! ! !

الخدمة الاجتماعية طابع العصر الحديث ، وقد اتسع مداها وزادت أهميتها بعد الحرب العظمى الماضية وما خلفته من بؤس وشقاء وفقر وأوبئة ومجاعات وأمراض . ثم فى هذه الحرب وما تجره من ويلات لجميع السكان .

والشباب هو العنصر الغالب فى القيام بهذه الخدمة ، لأن الشباب سن الفيض فى القوة والفضل فى العاطفة وهو فى موسم النهوض بالأعباء العامة ، قبل أن تتقدم السن ، وتنقص المقدرة ، وينزوى الفرد فى شئونه الخاصة وأعبائه الشخصية التى تزايد كلما تزايد العمر وتقدمت السنون .

وفى الشاب والشابة نشاط زائد ، ولديهما متسع من الوقت ، فإذا لم يجد هذا النشاط مجالا طيبا ينفق فيه ، انصرف إلى المجالات الفاسدة ، والفراغ والشباب حين يجتمعان تكون لهما دائما عواقبهما الوخيمة التى نص عليها الشاعر فى بيته القديم المشهور .

والخدمة الاجتماعية على اختلاف ضروبها وسيلة من خير الوسائل لانفاق النشاط وشغل الفراغ ، وهى وسيلة ميسرة لكل شاب ولكل فتاة ؛ وهى فضلا على أثرها الاجتماعى المطلوب — ترفع النفس وتجعل للحياة قيمة فى نظر المشتغلين بها ، وتلهمهم كثيرا من الفضائل التى لا يحس بها الفرد إلا حين يهتم بشئون المجتمع ويخرج من سجن الفردية البغيض .

وفى بلد كمصر يجد كل شاب وكل فتاة المجال واسعا لكل ضروب النشاط الاجتماعى ، فتعليم الأميين وإنقاذ المشردين ، ومعاونة المحتاجين ، ودراسة حال الأحياء الفقيرة ، وإرشاد الفقراء إلى وسائل لزيادة الدخل ، وإعداد الفتيات المشردات والفقيرات لحياة المجتمع ومعيشة البيت ، واستنقاذ المدمنين والغواة ... إلى عشرات من هذه الخدمات الاجتماعية كلها وسائل ميسورة لإرضاء النزعة الانسانية الخيرة ، وللقيام بالواجبات الاجتماعية المنوعة .

لدينا ألوف من الشبان والشابات يضيقون بالفراغ فهم دائما مشغولون بمعركة "قتل الوقت" يقتلونه ويقتلنه بالجلوس فى المقاهى وبالزيارات التى لاضرورة لها ، وبقراءة الوريقات الساقطة والمجلات الرخيصة والروايات التافهة ، وبالقيل والقال وتتبع أخبار الناس وبإيذاء خلق الله فى كثير من الأحيان .

وكل هذه مظاهر للفراغ وللنشاط الزائد والوقت المتسع . ولو وجد هذا النشاط منفذا إلى أعمال الخير لتقضى فيها ولأنتج نتائجه الطيبة !

ولدينا فى الوقت نفسه وفى القاهرة نفسها — لا فى الريف البعيد — مئات من الأحياء الفقيرة تصلح مزرعة تجريبية لجميع أنواع الخدمة الاجتماعية ، التى تشغل الغرائز ، وترفع النفس عن الصغائر وتستغرق الوقت الذى نقتله كل يوم فيما لا يفيد !

وكثيرا ما نشرت على صفحات هذه المجلة أوصاف لبعض هذه الأحياء تستدر الشفقة وتستنهض الهمم للخدمة ، وقد خطر لى قبيل عيد الأضحى الماضى أن أقوم بجولة شخصية فى حى من هذه الأحياء ، فإلى هؤلاء الشبان والفتيات أسوق بعض ماشاهدت بدون مبالغة — فما أنا فى حاجة إلى المبالغة والواقع وحده يكفى — لعل هذه الصور أن تحفزهم وتحفزهن إلى أداء الواجب المفروض ، الذى ينهض به الشباب فى بلاد العالم المتحضر ، بلا حث ولا توجيه .

خلف المسجد الحسينى وأبنية الجامعة الأزهرية الحديثة يقع حى يسمى "شارع الكفر" يدخل إليه الانسان من مدخل ضيق بشارع المعزلدين الله (الدراسة) . ومن هذا المدخل دخلت ومعى رفيق نجوس خلال هذا العالم المترامى الأطراف الذى يسمى " كفر الطماعين وكفر الزغارى . وحارة العطوف ..... " .

وما أحب أن أذكر تفصيلات مشاهداتنا فى خلال ساعتين كاملتين مررنا فيهما بالدروب الرئيسية إذ كان الدخول إلى الأزقة والعطفات الفرعية نوعا من المستحيل لمن يلبس حذاء وجوربا وبنطلونا لا بد من التضحية بها جميعا إذا خاطرنا فى هذه الأوحال والقاذورات المتعفنة والفضلات الانسانية والحيوانية التى تغوص بها الرجل — لا القدم وحدها — فى كل خطوة بالطريق .

اخترنا إذن أن نضحى بأحذيتنا دون الجوارب ودون البنطلون فتتبعنا الطرق الرئيسية فى هذا العالم المقفل المجهول . وفى هذه الطرق الرئيسية قضينا ساعتين فى المرور والطواف ، وكان ذلك يوم وقفة العيد .

هذه الطرقات الرئيسية من الطين وهى مرتفعة عن مداخل البيوت بنحو نصف متر ، فمعظم البيوت ذات عتبة يهبط منها الداخل نظرا لارتفاع الطريق . وعلى أبعاد قريبة فى هذه الطرقات يرى السائر بعض أكوام القمامة فضلا على الفضلات الحيوانية والإنسانية . ويرى المعز والنعاج مربوطة فى الطريق ، ويرى عجائز الحى وبعض المقعدين والمكفوفين مسندين إلى الجدران القائمة فى الطريق كذلك ، ويرى الذباب والبعوض والصراصير والخنافس جميعها تمرح فى أو حول أكداس القمامة .

وسألنا : ألا تؤخذ هذه القمامة من هذه الطرقات ؟ وأجابنا السكان : كلا ! ومن يأخذها ؟ قلنا وأين تذهب إذن ؟ قالوا تبعثر فى الطريق وينزل عليها المطر فى الشتاء أو تصب عليها المياه المتخلفة من حياة البيوت (إذ لا توجد غالبا مراحيض ولا مجار عامة) ويدوس عليها المارة فتلتصق بالأرض وتصبح جزءا من قشرتها ... وهنا عرفنا سر ارتفاع الطرقات عن البيوت !

للبيوت دهاليز معتمة مرطوبة لا يتطرق إليها الهواء، وطبيعي ألا يتطرق إليها النور ولا منافذ لها مع ضيقها وطولها ، حتى تنتهي إلى الحجرات الأرضية المعتمة أو إلى الفناء بين هذه الحجرات .

في بعض هذه البيوت رأينا مصابيح البترول من ذوات الفتيل بلا زجاج مشعلة من الداخل — والوقت ظهر — ليستطيع السكان أن يبصروا أنفسهم ويقضوا شئونهم في داخل هذه الدهاليز والحجرات السحيقة !

وفي بعض هذه البيوت شاهدنا على ضوء تلك المصابيح الخانقة رجالا ونساء وأطفالا وهم جميعا عرايا ! — وليس في هذه اللفظة مجاز إنما هي الحقيقة — لقد كان العيد على الأبواب فخلع الأطفال والرجال والنساء ملابسهم لتغسل — وليس لها بطبيعة الحال بديل — فأما النساء فجلسن وأمامهن "الطشوت" يغسلن ، وقد سترن أوساطهن فقط بخرق صغيرة ، وأما الرجال فانطووا على أنفسهم وتستروا بانطوائهم ، وأما الأطفال فقد انطلقوا بلا حرج من العرى البريء !

وقد شاهدنا وشاهدنا مما لا أريد أن أوذي به شعور القراء ، وليس من غرضي نشره لمصمصة الشفاه عنه . وحين أردنا أن نتقصى شؤون هؤلاء الناس قالت لنا فتاة من الحي . " أنتم رجال ولا تستطيعون أن تدخلوا البيوت لمعرفة ما فيها ، فابعثوا فتيات وهن يستطعن الحصول على جميع المعلومات والمساعدة إذ كنتم تريدون بالمعرفة المساعدة " .

كانت فتاة يبدو عليها شيء من الثقافة ولولا أننا في حي بلدي لاتخذناها لنا دليلا ولسرنا معها في ذلك العالم المجهول ، ولكن تقاليد الحي لا تسمح بمثل هذا ، ولا بد من متطوعات يدخلن البيوت فيأمن الناس لهن ويكشفون لهن المستور .

لو وجدت الفتاة التي تضحي بحذائها الثمين وجورب الرقيق ، ولو وجد الشاب الذي يتحمل وساخة الحذاء والبنطلون ، ولو وجد المتطوعون والمتطوعات الذين لا تضيق صدورهم بالروائح الكريهة والذين يصبرون على مكاره السير في هذه الأحياء ومكاره الدخول لهذه البيوت ، لاستطاع الجميع أن يساهموا في إنقاذ هؤلاء المنكوبين .

ويقيني أن هذه الأحياء وسكانها لو وجدت رعاية إنسانية من هؤلاء المتطوعين بدراسة حالة كل بيت ، ومعرفة موارد كل عائلة ، وطريقة ارتزاقها ، وأنواع ضروريتها ، لأمكن النهوض بها بدون تدخل من السلطات المسئولة .

إن إرشاد هؤلاء السكان إلى بعض القواعد الصحية كفتح بعض النوافذ ونقل القمامة المنزلية بعيدا عن الطرقات ، وعدم التبرز بجوار الجدران ، وتوزيع بعض المواد اللازمة للنظافة كالصابون والملابس ، ومنح بعض الضروريات كالأرز والعدس ... ثم محاولة

إرشاد الأهلين إلى موارد رزق جديدة تزيد من دخلهم وترفع مستواهم العقلى بالتنوير والتعليم الممكن ... إلى مثل هذه الخدمات كفيل بتغيير هذه الحالة المؤذية للشعور الإنسانى .

ومكاتب الخدمة الاجتماعية مشروع جليل من هذه الناحية ، ولكنه فى حاجة إلى المتطوعين والمتطوعات فى جميع الأحياء ، و ١٠,٠٠٠ متطوع ومتطوعة هو الحد الأدنى فى نظرى لدراسة حالة جميع السكان فى جميع الأحياء المحتاجة للدراسة .

وإن وزارة الشؤون الاجتماعية لتؤدى عملا جليلا حين تولى هذا المشروع عنايتها الكاملة ، وحين تعممه فى جميع أنحاء العاصمة بل العواصم والقرى جميعا ، ففى كل مدينة وكل قرية شباب فارغ ووقت ضائع ، وبجوارهما بؤس مخيم ومحتاجون للخدمة الاجتماعية .

وقد لا يكون هذا علاجا أساسيا للداء الأصيل ، ويكون العلاج الحاسم هو زيادة الموارد الفردية والموارد العامة حتى تختفى هذه المظاهر المؤذية من حياة البلاد ؛ ولكن كم يا ترى ينقضى من الوقت ويبذل من الجهود لتحقيق هذا العلاج الحاسم ؟ إنه ولا شك وقت طويل وجهد شاق ؛ والحالة الواقعة لا تحتمل الانتظار حتى تتحقق هذه الآمال العريضة ، فمن الواجب أن نجرب الآن كل وسيلة محدودة لتغيير الواقع الذى نراه .

وإننا لنذكر بالخير وزارة الصحة فى هذا المقام على مشروعها الذى يقضى بإزالة الأحياء القذرة الموبوءة فى مشروع السنوات العشر ؛ ولكنا نخشى أن تكون إزالة هذه الأحياء كلها فى حاجة إلى مبالغ ضخمة جدا لا تحققها الميزانية العامة إلا بعد زمن طويل .

وعلى أية حال ، لا ينبغى لنا أن نبقى مكتوفى الأيدى فى انتظار تلك المشروعات الضخمة ونحن نرى مواطنين أعزاء يحيون هذه الحياة فى القاهرة عروس الشرق وعاصمة الدنيا ... !

إن فى عنق كل شاب وكل فتاة دينا لا ينقضى حتى يزور حيا من هذه الأحياء المنتشرة فى أحياء العاصمة ويشترك فى تقديم خدمة اجتماعية من الوقت أو من المال أو من الجهد فى سبيل هؤلاء المواطنين الأعزاء .

وإن فى عنق كل ثرى وكل ثرية دينا لا ينقضى حتى يستجيب لدعوة المتطوعين والمتطوعات من أجل سكان هذه الأحياء المحرومة من الضروريات .

ولن يغفر لنا الوطن ولن يغفر لنا العالم المتحضر أن نقعد عن هذه الخدمات الاجتماعية فى ارتقاب المشروعات الحكومية الضخمة التى قد يطول انتظارها ، أو فى ارتقاب المعجزات السماوية التى تنقذ هؤلاء الألوف من المواطنين .

ولنذكر دائما أن الخدمة الاجتماعية هى السمة البارزة للعصر الذى نعيش فيه ، وأنها مقياس لا يخطئ على درجة التحضر ومقدار الرقى العام ، وأن الأجانب يزورون هذه الأحياء ويحتفظون بمجموعات من الصور الفوتوغرافية لمشاهداتهم فيها ثم يحكمون علينا مما يشاهدون وهو أصدق مما نحاوله بالدعاية والإعلان !